

عِلْمُ الدِّقَائِيَّاتِ
المحاضرة ٢٥: سَيْكُولُوجِيَّةُ الإِلْحَادِ
أ.ر.سي. سبرول

فِي الْمَحَاضِرَةِ السَّابِقَةِ، رَأَيْنَا كَيْفَ أَنَّ مُلْحِدِي الْقَرْنِ الثَّاسِعِ عَشَرَ، فِي سَعْيِهِمْ لِفَهْمِ سَبَبِ كَوْنِ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ مُتَدَيِّنًا عَلَى نَحْوِ لَا شِفَاءَ مِنْهُ، ابْتَكُرُوا نَظَرِيَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً تُفِيدُ بِأَنَّ الدِّينَ هُوَ نِتَاجُ الْخَيَالِ الإِبْدَاعِيِّ لِلْبَشَرِ، الَّذِينَ بِبَسَاطَةٍ لَا يَتَحَلَّوْنَ بِالشَّجَاعَةِ الأَدْبِيَّةِ لِمُوَاجَهَةِ الْوَاقِعِ الْمُؤَلِّمِ لِانْعِدَامِ مَعْنَى الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ. فَتَمَّةً دَافِعَ نَفْسِيٍّ، وَاحْتِيَاجَ نَفْسِيٍّ. وَبَسَبَبِهِمَا، وَلِلْهُرُوبِ مِنَ الْوَاقِعِ الْمَرِيرِ، يُصِغُ الْبَشَرُ لِأَنْفُسِهِمْ، وَلِأَجْلِ رَاحَتِهِمْ، فِكْرَةً وَجُودَ إِلَهٍ يَرْجُونَ أَنْ يُنْقِذَهُمْ مِنْ انْعِدَامِ الْمَعْنَى.

ذَكَرْتُ فِي بَدَايَةِ هَذِهِ السَّلْسِلَةِ أَنِّي اعْتَدْتُ تَقْدِيمَ مَقَرَّرٍ عَنِ الإِلْحَادِ، وَكُنْتُ أَطَالِبُ طُلَّابِي بِالجَامِعَةِ بِقِرَاءَةِ الْمَصَادِرِ الأَوَّلِيَّةِ لِلْمُلْحِدِينَ. وَأَنْتَاءً تَحْلِيلِنَا لَهَا، تَنَاوَلْنَا الْأَنْمَاطَ الْمَعْرِفِيَّةَ الَّتِي اسْتَكْشَفْنَاهَا، أَيِ الْمَسَائِلِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالسَّبَبِيَّةِ، وَالْعَقْلَانِيَّةِ، وَغَيْرِهَا. لَكِنِ أَيْضًا، إِذَا كُنْتُمْ تَذَكُرُونَ الْمَحَاضِرَاتِ الأُولَى، أَشْرْتُ إِلَى أَنَّهُ بِالإِجْمَاعِ تَقْرِيبيًا، تَطَّرَقَ نُقَادُ الإِيمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ إِلَى الْمَبْدَأِ الْقَائِلِ إِنَّ الدَّافِعَ الْحَقِيقِيَّ وَرَاءَ الإِيمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ يَكْمُنُ فِي سَيْكُولُوجِيَّةِ الْإِنْسَانِ. وَلِهَذَا السَّبَبِ، مِنْذُ سَنَوَاتٍ عِدَّةٍ، اضْطَلَعْتُ بِتَأْلِيفِ كِتَابٍ لِلْعُلَمَائِيِّينَ، لِأَقْدَمِ مُقَدِّمَةٍ مُخْتَصَرَةٍ عَنْ بَعْضِ هَؤُلَاءِ الفَلَسِيفَةِ الشُّكُوكِيِّينَ، وَأَبَيَّنَ رَدَّ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ عَلَيْهِمْ. كَانَ الْعُنْوَانُ الأَصْلِيُّ لِهَذَا الْكِتَابِ هُوَ "سَيْكُولُوجِيَّةُ الإِلْحَادِ". وَعُنْوَانُهُ الْحَالِيُّ هُوَ: "إِذَا كَانَ هُنَاكَ إِلَهٌ، فَلِمَ يُوْجَدُ مُلْحِدُونَ؟"

بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، اسْتَخْدَمْتُ الْمَبْدَأَ الَّذِي تَحَدَّثْنَا عَنْهُ فِي الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ، حَيْثُ قَالَ الشُّكُوكِيُّونَ فِي الْقَرْنِ الثَّاسِعِ عَشَرَ: "إِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَهٌ، فَلِمَ يُوْجَدُ مُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ إِلَهٍ؟" وَكَانَتْ الإِجَابَةُ هِيَ "الإِحْتِيَاجُ النَّفْسِيُّ". وَلِذَا سَأَلْتُ فِي هَذَا الْكِتَابِ: "إِنْ كَانَ هُنَاكَ إِلَهٌ، فَلِمَ يُوْجَدُ مَنْ يُنْكِرُونَ وَجُودَهُ؟" وَهَكَذَا. وَفِي بَدَايَةِ الْكِتَابِ، تَحَدَّثْتُ عَنْ سَبَبِ اخْتِلَافِ الْمُفَكِّرِينَ الْعُظَمَاءِ فِي الرَّأْيِ - سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ. فَالْبَعْضُ مِنْ أَهْلِ الْمُفَكِّرِينَ فِي كُلِّ التَّارِيخِ تَبَتَّوْا أَحَدَ طَرَفِي التَّقْيِيزِ. وَمَعَ أَنِّي اخْتَلَفْتُ جَدْرِيًا مَعَ جَانِ بُولِ سَارْتِرِ فِي مَفْهُومِهِ عَنِ الْوَاقِعِ، لَسْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ عَمِيٌّ. كَانَ جَانِ بُولِ سَارْتِرِ وَاحِدًا مِنْ أَكْثَرِ الْمُفَكِّرِينَ فِطْنَةً وَجَادِبِيَّةً وَذَكَاءً فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ. وَبِالطَّبَعِ، كَانَ جُونِ سْتِيوارْتِ مِيلُ أَيْضًا عَمَلًا قَائِمًا مِنْ حَيْثُ إِمْكَانِيَّاتُهُ الْفِكْرِيَّةُ. فَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّهُ كَانَ اسْتِنَائِيًّا، مِثْلَهُ مِثْلُ كَانْطِ، وَهِيُومِ، وَفُويرِبَاخِ، وَغَيْرِهِمْ، وَمِثْلَ نَيْتْشَةَ. لَكِنِ فِي الْمُقَابِلِ، يُوْجَدُ أَنْاسٌ مِثْلُ الأَكُوْبِيْنِيِّ، وَأُوغُسْطِينُوسِ، وَأَنْسِلْمِ، وَعَمَالِقَةَ التَّارِيخِ الَّذِينَ دَافَعُوا عَنِ الْحُجَجِ الْمُؤَيَّدَةِ لَوْجُودِ اللَّهِ. إِذَنْ، لَا يَتَعَلَّقُ الأَمْرُ فَقَطْ بِالتَّفُوقِ الْفِكْرِيِّ. وَقَدْ يَكُونُ الإِخْتِلَافُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ هُوَ عَدَمُ اكْتِمَالِ الْبَرَاهِينِ لَدَى فَرِيْقٍ أَوْ الأَخَرَ، أَوْ ارْتِكَابُ أَحَدِهِمْ أخطاءً مَنْطِيقِيَّةً. نَعْلَمُ أَنَّهُ يُمَكِّنُ لِأَنْاسٍ أَذْكَيَاءَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الرَّأْيِ بِسَبَبِ

أَخْطَاءٍ مَعْرِفِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ. لَكِنِّي قُلْتُ هَذَا: "أَحَدُ الْعَوَامِلِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَشْمَلَهَا هَذَا الْجَدُلُ بِرُمْتِهِ هُوَ الْعَامِلُ النَّفْسِيُّ. دَعُونَا نَتَّفِقُ إِذْنًا مِنَ الْآنَ عَلَى أَنْ مَسْأَلَةَ وُجُودِ اللَّهِ مُحْمَلَةٌ بِعَوَامِلِ نَفْسِيَّةٍ".

ذَهَبْتُ إِلَى مُبَارَاةِ كُرَةِ قَدَمٍ بِالْأَمْسِ، وَكُنْتُ جَالِسًا بِجِوَارِ رَجُلٍ كَانَ يَزْدَادُ اسْتِيَاءً مِنْ قَرَارَاتِ الْحُكْمِ، لِأَنَّهُ شَعَرَ بِأَنَّ الْحُكْمَ مُنْحَازًا إِلَى الْفَرِيقِ الْخُصْمِ. وَسَأَلْتَنِي عَنْ ذَلِكَ بَعْدَ الْمُبَارَاةِ، فَقُلْتُ: "سَبَقَ أَنْ كُنْتُ حَكَمًا فِي مُبَارَاةٍ لِكُرَةِ السَّلَّةِ وَأَنَا فِي كَلْبِيَّةِ اللَّاهُوتِ، وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِأَنِّي حِينَ كُنْتُ أَحْكَمَ فِي مُبَارَاةٍ كُرَةِ السَّلَّةِ مَعَ شَخْصٍ آخَرَ، وَيَكُونُ الْمَكَانُ مُكْتَظًا بِالْحُضُورِ، كُنْتُ أُدْرِكُ أَنَّ شَخْصِينَ فَقَطْ فِي الْمَكَانِ لَا يَهْمُهُمَا مَنْ سَيَرَبِحُ الْمُبَارَاةَ، أَنَا وَالْحُكْمَ الْآخَرَ". وَقُلْتُ: "لَمْ يَكُنْ لَدَيْنَا أَيُّ تَحْيِيزٍ. لَكِنَّ الْحَاضِرِينَ مُتَحَيِّزُونَ. وَهُمْ يُشَاهِدُونَ الْمُبَارَاةَ مِنْ هَذَا الْمَنْظُورِ، وَيَسْتَبِقُونَ الْأُمُورَ، فَيُظَنُّونَ أَنَّ أَحَدَهُمْ سَيَرْتَكِبُ مُخَالَفَةَ بَحَقِّ الْآخَرَ. وَحَتَّى إِنْ لَمْ يَمَسَّهُ، سَيَرُونَ الْمَخَالَفَةَ بِأَعْيُنِهِمْ، وَيَرْعَبُونَ أَنْ يَعْرِفُوا سَبَبَ عَدَمِ إِطْلَاقِ الصَّافِرَةِ". فَنَحْنُ نَعْلَمُ، وَنَحْتَبِرُ جَمِيعًا، حِينَ نُشَجِّعُ فِرْقَانَا الْمُفْضَلَةَ فِي الرِّيَاضَةِ وَعَظِيمًا، أَنَّنَا قَادِرُونَ عَلَى النَّظَرِ إِلَى الْبَرَاهِينِ مِنْ خِلَالِ عَدَسَةِ تَحْيِيزِنَا.

وَيَجِبُ أَنْ أَقُولَ أَمَامَ الْعَالَمِ كُلِّهِ إِنَّ كُلَّ عَظَمَةٍ فِي جَسَدِي تُرِيدُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ إِلَهٌ. فَلَا يُمَكِّنِي تَحْمُلُ فِكْرَةٍ أَنْ تَكُونَ حَيَاتِي عَاطِفَةً عَدِيمَةَ الْجَدْوَى. وَلِذَا، عَلَيَّ الْإِعْتِرَافُ لَيْسَ فَقَطْ بِأَنَّ لَدَيَّ تِلْكَ الرَّغْبَةَ، لَكِنِّي أَتَّفِقُ أَيضًا مَعَ الشُّكُوكِيِّينَ بِأَنَّهُ يُمَكِّنُ لِلنَّاسِ أَنْ يَبْنُوا نَظْمًا فَلَسَفِيَّةً عَلَى رَعَبَاتِهِمْ، وَأَحْكَامِهِمُ الْمُسَبَّقَةَ، وَتَحْيِيزَاتِهِمْ، وَأَنْ يَسْمَحُوا لِذَلِكَ بِالتَّشْوِيشِ عَلَى فِكْرِهِمْ. لَكِنِ أَوْدُ الْقَوْلِ أَيضًا فِي التَّهَيَّاتِ إِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ تَحْدِيدَ حَقِيقَةِ وُجُودِ اللَّهِ بِنَاءً عَلَى مَا أُرِيدُ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا. وَأَتَّفِقُ مَعَ نُقَادِ كَانِظٍ عَلَى أَنَّ مَجْرَدَ أَنَّ الْحَيَاةَ سَتَكُونُ بِلَا مَعْنَى دُونَ اللَّهِ لَيْسَ أَسَاسًا كَافِيًا لِتَأْيِيدِ وُجُودِ اللَّهِ. فَذَلِكَ يُعَبِّرُ فَقَطْ عَنِ ذَاتِيَّتِنَا وَرَعَبَاتِنَا، وَلَا يُثَبِّتُ وُجُودَ اللَّهِ بِأَيِّ حَالٍ.

لَكِنِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي أَرَى أَنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَفْهَمَهَا هُوَ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَخُوضُ فِي جِدَالٍ حَوْلَ وُجُودِ اللَّهِ يُوَاجِهُ الْعَوَامِلَ النَّفْسِيَّةَ نَفْسَهَا، لِأَنَّ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ وُجُودَ اللَّهِ يُحَقِّقُونَ مَصَالِحَ كَبِيرَةً مِنْ إِنْكَارِ وُجُودِ اللَّهِ، لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَائِقُ الْأَكْبَرُ فِي الْكُونِ أَمَامَ اسْتِقْلَالِي. فَإِذَا أَرَدْتُ حَقًّا أَنْ أَفْعَلَ مَا يَحُلُونِي، دُونَ مُوَاجَهَةِ عُقُوبَةٍ، أَعْلَمُ أَنَّ أَكْبَرَ عَائِقِ أَمَامَ ذَلِكَ هُوَ وُجُودُ إِلَهٍ سَرْمَدِيٍّ وَبَارٍّ وَأَيْضًا عَادِلٍ. وَإِذَا كُنْتُ قَدْ أَخْطَأْتُ قَبْلًا، وَلَمْ أَتُبَّ عَنْ خَطِيئَتِي، أَعْلَمُ أَنَّ أَسْوَأَ مَا سَيَصِيبُنِي هُوَ الْوُقُوعُ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ الْحَيِّ. وَلِذَا، الْإِنْكَارُ أَمْرٌ نَفْسِيٌّ. فَإِنِّي سَأَفْعَلُ كُلَّ مَا بُوَسْعِي لِإِنْكَارِ ذَنْبِي وَمَسْئُورِيَّتِي، وَلَوْ إِلَى حَدِّ إِنْكَارِ أَنِّي سَأَحَاسِبُ فِي التَّهَيَّاتِ عَنْ حَيَاتِي.

مُجَدِّدًا، دَعُونِي أَقُولَ إِنَّهُ إِذَا كَانَ هُنَاكَ عَامِلٌ نَفْسِيٌّ فِي تَأْيِيدِ وُجُودِ اللَّهِ، فَهَذَا لَا يُثَبِّتُ وُجُودَ اللَّهِ. وَإِذَا كَانَ هُنَاكَ عَامِلٌ نَفْسِيٌّ فِي دَحْضِ وُجُودِ اللَّهِ، فَهَذَا لَا يَدْحَضُ وُجُودَهُ. فَفِي التَّهَيَّاتِ، عَلَى الْحُجَجِ الْمُؤَيَّدَةِ لَوْجُودِ اللَّهِ أَنْ تُبْنَى عَلَى أَسَاسِ مَوْضُوعِيٍّ، وَلَيْسَ عَلَى التَّفْضِيلِ الشَّخْصِيِّ. وَهَذَا مَا حَاوَلْتُ أَنْ أُبَيِّنَهُ طَوَالَ هَذِهِ السَّلْسِلَةِ. لَكِنِّي اعْتَمَنْتُ الْفُرْصَةَ

لِلرَّدِّ عَلَى الْإِتِّهَامِ الْقَائِلِ إِنَّ السَّبَبَ الْوَحِيدَ الَّذِي لِأَجْلِهِ يُؤْمِنُ النَّاسُ بِاللَّهِ هُوَ تَلْبِيئُهُ رَعْبَاتِهِمُ النَّفْسِيَّةَ، أَوْ الْإِسْقَاطَ النَّفْسِيَّ. وَأَوْضَحُ أَنَّهُ يُوجَدُ قَدْرٌ مِنَ الضَّغْطِ النَّفْسِيِّ، أَوْ الرَّغْبَةِ، لَدَى الْمُلْحِدِ أَنْ يُنْكِرَ وُجُودَ اللَّهِ، وَلَدَى الْمُؤْمِنِ بِوُجُودِ اللَّهِ أَنْ يُؤَيِّدَ وُجُودَ اللَّهِ، حَتَّى تَكُونَ الْأُمُورُ وَاضِحَةً. وَالْعَهْدُ الْجَدِيدُ يَتَطَرَّقُ إِلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ فِي عِدَّةٍ مَقَاطِعَ. فَمَثَلًا، يَقُولُ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ إِنَّ الْإِنْسَانَ السَّاقِطَ - أَيْ الْإِنْسَانَ فِي فَسَادِهِ - لَا يُرِيدُ إِثْقَاءَ اللَّهِ فِي مَعْرِفَتِهِ. وَإِنَّ طَبِيعَتَنَا كَبَشِيرٍ فَانِينٍ هِيَ أَنْ لَنَا ذَهْنًا مَرْفُوضًا، وَذَهْنًا صَارَ مُظْلِمًا بِفِعْلِ الْأَحْكَامِ الْمُسَبِّقَةِ، حَتَّى إِنَّنَا لَا نُرِيدُ فَتْحَ آيَةٍ نَافِذَةٍ لِنَسْمَحَ لِأَشِعَّةِ إِعْلَانِ اللَّهِ عَنْ ذَاتِهِ بِاخْتِرَاقِ أَذْهَانِنَا، لِإِنَّنَا نُدْرِكُ مَا هُوَ عَلَى الْمِحْكَ، وَإِنَّنَا سَنَقَعُ فِي مَازِقٍ إِذَا سَمَحْنَا لِهَذِهِ الْمَعْرِفَةِ بِالذُّخُولِ.

تَوَسَّعَ بُولُسُ فِي ذَلِكَ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى كَنِيسَةِ رُومِيَّةَ. وَفِي كِتَابِي، حَصَّصْتُ فَضْلًا كَامِلًا لِشَرْحِ رُومِيَّةِ الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ. لَنْ أُحَوِّضَ فِي كُلِّ التَّفَاصِيلِ هُنَا، بَلْ سَأَقْدِمُ فَقَطْ نَظْرَةً عَامَّةً، وَأَذْكَرُكُمْ أَنَّهُ فِي بَدَايَةِ هَذِهِ السَّلْسِلَةِ، تَعَلَّمْنَا أَنَّهُ فِي رُومِيَّةِ الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ، قَالَ الرَّسُولُ بُولُسُ إِنَّ أُمُورَ اللَّهِ غَيْرَ الْمُنْظُورَةِ يُمَكِّنُ أَنْ تُدْرِكَ بِوَاسِطَةِ الْكُونِ الْمَخْلُوقِ. وَأَذْكَرُكُمْ بِأَنِّي أَخْبَرْتُكُمْ بِوُجُودِ تَعَارُضٍ بَيْنَ شُكُوكِيَّةِ إِيْمَانُيُولِ كَانِظٍ وَاعْتِقَادِهِ اللَّأِ أَدْرِيٍّ مِنْ نَاحِيَّةٍ، وَبَيْنَ التَّصْرِيحَاتِ الَّتِي أَدَلَى بِهَا الرَّسُولُ بُولُسُ فِي كِتَابَاتِهِ، حَيْثُ قَالَ إِنَّنَا لَسْنَا فَقَطْ نَسْتَطِيعُ مَعْرِفَةَ اللَّهِ بِوَاسِطَةِ الطَّبِيعَةِ، بَلْ فِي الْوَاقِعِ، نَحْنُ نَعْرِفُ اللَّهَ بِالْفِعْلِ بِوَاسِطَةِ الطَّبِيعَةِ.

مَا يَقُولُهُ بُولُسُ هُنَا بِالْفِعْلِ - رَبَّمَا يُزْعِجُكَ ذَلِكَ إِذَا لَمْ تَكُنْ مُؤْمِنًا بِوُجُودِ اللَّهِ، لَكِنْ عَلَى الْأَقْلِّ اسْمَعْنِي. يُمَكِّنُكَ أَنْ تَخْتَلِفَ مَعَ بُولُسِ فِي الرَّأْيِ إِذَا شِئْتَ - لَسْتُ أَظُنُّ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ فِعْلَ ذَلِكَ دُونَ عَوَاقِبِ - فَأَنْتَ لَنْ تُقَدِّمَ حِسَابًا لِي. لَكِنْ، يَقُولُ الرَّسُولُ هُنَا إِنَّ، فِي التَّهَامِيَّةِ، مُشْكِلتَكَ مَعَ وُجُودِ اللَّهِ لَيْسَتْ فِكْرِيَّةً، وَلَيْسَ سَبَبُهَا عَدَمَ تَوَافُرِ مَعْلُومَاتٍ كَافِيَّةٍ، أَوْ عَدَمَ وُضُوحِ إِعْلَانِ اللَّهِ عَنْ ذَاتِهِ. فَمُشْكِلتُكَ لَيْسَتْ فِكْرِيَّةً، بَلْ أَخْلَاقِيَّةٌ. لَيْسَتْ مُشْكِلتُكَ هِيَ عَجْرُكَ عَنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ، بَلْ مُشْكِلتُكَ هِيَ أَنَّكَ لَا تُرِيدُ اللَّهَ. هَذَا هُوَ الْإِتِّهَامُ الَّذِي وَجَّهَهُ الرَّسُولُ، وَالَّذِي عَرَّضَهُ فِي الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ مِنَ الرَّسَالَةِ إِلَى رُومِيَّةَ، حَيْثُ قَالَ فِي رُومِيَّةَ ١: ١٨، "لِأَنَّ غَضَبَ اللَّهِ مُعْلَنٌ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى جَمِيعِ فَجُورِ النَّاسِ وَإِثْمِهِمْ".

دَعُونِي أَعْلَقُ عَلَى ذَلِكَ سَرِيعًا. فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الْأُولَى تُزْعِجُ الْكَثِيرِينَ. فَآخِرُ شَيْءٍ يُرِيدُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، لَيْسَ فَقَطْ أَنَّهُ يُوجَدُ إِلَهٌ، لَكِنَّهُمْ فَطَعًا لَا يُرِيدُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِوُجُودِ إِلَهٍ غَاضِبٍ. فَالْكَثِيرُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِوُجُودِ اللَّهِ يَعْتَرِفُونَ بِوُجُودِ اللَّهِ، لَكِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ أَنَّ الْإِلَهَ الَّذِي يَعْتَرِفُونَ بِهِ يُمَكِّنُ أَنْ يَغْضَبَ. وَالْكَلِمَةُ الَّتِي اسْتَعْمَلَهَا بُولُسُ هُنَا قَوِيَّةٌ، وَهِيَ كَلِمَةُ "orge"، الَّتِي جَاءَتْ مِنْهَا الْكَلِمَةُ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ "orgy"، وَمَعْنَاهَا "هِيَاجٌ عَاطِفِيٌّ عَنِيفٌ". يَقُولُ بُولُسُ هُنَا إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ فَقَطْ غَاضِبًا، لَكِنَّهُ مُسْتَشِيطٌ.

لَا حِطُّوا أَنَّ سَبَبَ غَضَبِهِ الْمَعْلَنِ هُنَا لَيْسَ أَنَّ اللَّهَ غَاظِبٌ عَلَى أَزْرَارٍ، أَوْ غَاظِبٌ عَلَى أَزْرِيَاءَ، بَلْ إِنَّ غَضَبَهُ مُعْلَنٌ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى مَاذَا؟ عَلَى الْفُجُورِ وَالْإِثْمِ. تُوْجَدُ فِي هَذَا النَّصِّ صِيَاغَةٌ لُغَوِيَّةٌ تُسَمَّى بِالْإِسْهَابِ، حَيْثُ تُسْتَخْدَمُ كَلِمَتَانِ مُخْتَلِفَتَانِ بِالْمَعْنَى نَفْسِهِ. يَقُولُ الرَّسُولُ إِنَّهُ تُوْجَدُ خَطِيئَةٌ مُعَيَّنَةٌ أَشْعَلَتْ غَضَبَ اللَّهِ، وَتِلْكَ الْخَطِيئَةُ الْمُعَيَّنَةُ تُوصَفُ بِأَنَّهَا إِثْمٌ وَفُجُورٌ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ. وَمَا هِيَ الْخَطِيئَةُ؟ عَرَفَهَا قَائِلًا: "جَمِيعُ فُجُورِ النَّاسِ وَإِثْمُهُمُ الَّذِينَ يَحْجِرُونَ الْحَقَّ بِالْإِثْمِ". يَصِفُ بُولُسُ هُنَا حَجْرًا أَوْ كَبْحًا شَرِيرًا لِلْحَقِّ. وَالْفِعْلُ "يَحْجِرُونَ" هُوَ أَحَدُ التَّرْجَمَاتِ. فَصِيغَةُ الْفِعْلِ فِي الْيُونَانِيَّةِ تَأْتِي مِنَ الْجَذْرِ "katakein". لَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَى مَعْرِفَةِ اللُّغَةِ الْيُونَانِيَّةِ. كَلِمَةُ "katakein" تُتْرَجَمُ إِلَى "يَضْعَطُ عَلَى، يَخْنُقُ، يَعِيقُ، يَكْبِتُ، يَقْمَعُ". فَمَا يُبَيِّرُ غَضَبَ اللَّهِ هُوَ أَنَّهُ أَعْطَى الْبَشَرَ مَعْرِفَةً لَيْسَتْ غَامِضَةً أَوْ مُبْهَمَةً. فَالْكَلِمَةُ هُنَا هِيَ "phaneros" - وَالْكَلِمَةُ اللَّاتِينِيَّةُ هِيَ "manifestum". فَاللَّهُ أَعْلَنَ عَنْ ذَاتِهِ بِوُضُوحٍ شَدِيدٍ لِكُلِّ إِنْسَانٍ. كَانَ تَأْكِيدُ بُولُسِ جَدْرِيًّا، إِذَا قَالَ إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ مَوْجُودٌ - وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ - يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ مَوْجُودٌ، لِأَنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ ذَاتَهُ لَكُمْ بِوَاسِطَةِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي خَلَقَهَا، وَأَظْهَرَ ذَاتَهُ لَكُمْ بِوُضُوحٍ وَجَلَاءٍ. لَكِنْ مَا يَفْعَلُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِالطَّبِيعَةِ هُوَ أَنَّنَا نَقْمَعُ ذَلِكَ، وَنُقَاوِمُهُ، لِدَرَجَةٍ أَنَّنَا نَأْخُذُ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ وَهَذِهِ الْمَعْرِفَةَ وَنَدْفِنُهَا. فَإِنَّا نَحْجِرُهَا أَوْ نَكْبِتُهَا.

وَإِذَا أَرَدْنَا التَّحَدُّثَ بِلُغَةِ عِلْمِ النَّفْسِ، سَنُتْرَجِمُ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ الَّتِي يَصِفُهَا بُولُسُ بِمُفْرَدَاتِ عِلْمِ النَّفْسِ الْحَدِيثَةِ. فَمَا نَوْعُ الْمَعْرِفَةِ، بِحَسَبِ عُلَمَاءِ النَّفْسِ وَالْأَطِبَّاءِ النَّفْسِيِّينَ، الَّتِي نَقْمَعُهَا أَوْ نَكْبِتُهَا نَحْنُ الْبَشَرَ بِالطَّبِيعَةِ؟ أَهِيَ الْأَفْكَارُ السَّعِيدَةُ؟ كَلَّا، بَلْ "الصُّورُ أَوْ الذِّكْرِيَّاتُ مِنْ خَيْرَاتِنَا الْمُؤَلِّمَةِ وَالْمَوْجِعَةِ". وَلِذَلِكَ، إِذَا ذَهَبْتَ لِزِيَارَةِ طَبِيبِكَ النَّفْسِيِّ لِأَنَّكَ تُعَانِي قَلْقًا غَيْرَ مُبَرَّرٍ، أَوْ خَوْفًا مُزْعِجًا، أَوْ كُنْتَ مُزْعِجًا مِنْ أَمْرٍ مَا وَلَا تَعْرِفُ السَّبَبَ، سَتَطْلُبُ مِنَ الطَّبِيبِ النَّفْسِيِّ أَنْ يَكْتَشِفَ الْمَشْكَلَةَ. وَرُبَّمَا يُخْضِعُكَ لِاخْتِبَارِ الشَّخْصِيَّةِ، وَيَسْأَلُكَ عَنْ أَحْلَامِكَ. وَقَدْ يَسْتَعِدُّ رُمُوزًا، وَيَطْرَحُ عَلَيْكَ أَسْئَلَةً، مَثَلًا، عَنْ عِلَاقَتِكَ بِوَالِدَيْكَ، وَيَسْأَلُكَ: "كَيْفَ كَانَتْ عِلَاقَتُكَ بِأُمَّكَ؟" فَتُجِيبُ الطَّبِيبَ النَّفْسِيِّ قَائِلًا: "أُمِّي؟ كَانَتْ عِلَاقَتِي بِأُمِّي رَائِعَةً، وَكُنَّا عَلَى وِفَاقٍ شَدِيدٍ. أَعْتَقِدُ أَنَّ أُمِّي هِيَ أَرْوَعُ شَخْصٍ فِي الْعَالَمِ. لِمَ تَسْأَلُنِي عَنْ أُمِّي؟ لَنْ يَكْتَفِي الطَّبِيبُ النَّفْسِيُّ بِالْإِضْغَاءِ إِلَى كَلِمَاتِكَ، لَكِنَّهُ سَيُعْبِرُ اهْتِمَامًا كَبِيرًا لِلرِّسَالَةِ غَيْرِ الشَّفَهِيَّةِ الَّتِي تُوصِلُهَا، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّنَا إِذَا دَفَنَّا ذِكْرَى مُؤَلِّمَةً، فَهَذَا الْحُجْرُ أَوْ الْكَبْتُ لَهَا لَنْ يُبِيدَهَا أَوْ يَقْضِي عَلَيْهَا. فَهِيَ مَدْفُونَةٌ لَكِنَّهَا تَوَدُّ الظُّهُورَ مُجَدَّدًا. بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، مَعْنَى "katakein" هُوَ دَفْعُ الشَّيْءِ أَوْ ضَعْفُهُ لِأَسْفَلِ، بِمُمَارَسَةِ ضَعْفِ مُقَاوِمِ لِلضَّغْطِ الْمُضَادِّ. وَأَفْضَلُ تَشْبِيهِهُ يُمَكِّنُنِي التَّفَكِيرُ فِيهِ هُوَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لَدَيْكَ زُنْبُرُكَ حَلْزُونِيٌّ، مُكُونٌ مِنْ سِلْكٍ حَلْزُونِيٍّ سَمِيكَ جَدًّا، سَيَكُونُ عَلَيْكَ أَنْ تَضَعْتَ عَلَيْهِ بِكُلِّ قُوَّتِكَ كَيْ تَكْبِسَهُ، عَالِمًا أَنَّكَ إِذَا أَوْفَقْتَ الضَّغْطَ الَّذِي تُمَارِسُهُ عَلَيْهِ، سَيَعُودُ هَذَا الزُّنْبُرُكَ إِلَى وَضْعِهِ الْأَصْلِيِّ. هَذَا هُوَ مَا يَحْدُثُ مَعَ الْحَبْرَاتِ الْمُؤَلِّمَةِ. فَإِنَّا نَدْفِنُهَا، لَكِنَّهَا تَعُودُ لِلظُّهُورِ مِنْ خِلَالِ الْأَحْلَامِ، وَمِنْ خِلَالِ إِسَارَاتٍ رَمَزِيَّةٍ. وَالْيَكُ الْمِفْتَاحُ: هِيَ سَتَعُودُ لِلظُّهُورِ فِي سَكْلِ أَقْلٍ تَهْدِيدًا مِنَ الشَّكْلِ الَّذِي دَخَلَتْ بِهِ أَوَّلًا إِلَى وَعْيِكَ. وَلَا حَقًّا فِي هَذَا النَّصِّ، اسْتَعْدَمَ الرَّسُولُ بُولُسَ كَلِمَةً يُونَانِيَّةً أُخْرَى، مُصَاغَةً مِنْ

الفعل "metallasso"، الذي معناه المُقايضة أو الاستبدال، قائلاً إنَّ البَشَرَ "لَمَّا عَرَفُوا اللَّهَ" مِنْ خِلالِ إِعْلَانِهِ عَن ذَاتِهِ، وَبِمَجَرَّدِ حَجْرِهِمْ أَوْ ذَنْبِهِمْ لِهَذِهِ الْمَعْرِفَةِ، "أَسْتَبَدُّوا حَقَّ اللَّهِ بِالْكَذِبِ، وَاتَّقَوْا وَعَبَدُوا الْمَخْلُوقَ دُونَ الْخَالِقِ، الَّذِي هُوَ مُبَارَكٌ إِلَى الْأَبَدِ".

وَفِي الْوَاقِعِ، الرَّسُولُ بُولُسُ، يَا أَصْدِقَائِي، وَصَفَ مَا يَقُومُ بِهِ الذَّهْنُ الْبَشَرِيُّ وَالْقَلْبُ الْبَشَرِيُّ بِأَنَّهُ الْعَمَلُ الشَّرِيرُ الْأَسَاسِيُّ، وَالرَّيْسِيُّ، وَالْأَصْلِيُّ الَّذِي يَرْتَكِبُهُ الْإِنْسَانُ السَّاقِطُ، وَهُوَ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ - أَي تَغْيِيرُ الْحَقِّ، وَالْمُقَايِضَةُ بِهِ، وَقَبُولُ الْكَذِبِ. وَمُجَدِّدًا، إِذَا وَصَفْنَا ذَلِكَ بِمُفْرَدَاتٍ حَدِيثِيَّةٍ، فَهَذَا تَحْدِيدًا هُوَ مَا يَقُولُ الطَّبِيبُ التَّفْسِيُّ إِنَّا نَفْعَلُهُ. فَإِنَّا لَا نَقْضِي عَلَى الصُّورَةِ أَوْ الْفِكْرَةِ أَوْ الذِّكْرَى الْأَصْلِيَّةِ، بَلْ نَقْضُهَا، بِحَيْثُ إِنْ كُنْتَ أَوَّاجَهُ مُشْكَلاتٍ مَعَ أُمَّي، سَتَظْهَرُ هَذِهِ الْمَشْكَلَةُ فِي حَدِيثِي الْوَاغِي، مِنْ خِلالِ إِشَارَةٍ أَوْ إِيمَاءَةٍ، أَسْتَطِيعُ التَّعَامُلَ مَعَهَا الْيَوْمَ بِطَرِيقَةٍ أَمْنَةٍ.

يَقُولُ الرَّسُولُ إِنَّهُ نَمَّةٌ سَيْكُولُوجِيَّةٌ خَاصَّةٌ بِالْإِلْحَادِ، وَتَابَعَ مُشِيرًا إِلَى مَا نَحَافُ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنَ الطَّبِيعَةِ، وَأَكْثَرَ مِنْ انْعِدَامِ الْمَعْنَى. فَأَكْبَرُ خَوْفٍ يُعَانِي مِنْهُ أَيُّ إِنْسَانٍ بِالطَّبِيعَةِ هُوَ أَنْ يُخْضَعَ لِلْمَسَاءَلَةِ أَمَامَ إِلَهٍ قُدُوسٍ، لِأَنَّ فِي مُحَضَّرِ الْقُدُوسِ تَنَكُّشُفُ نَجَاسَتُنَا عَلَى الْقُورِ.

إِذَنْ، إِلَهَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ هُوَ إِلَهٌ كُلِّيُّ الْعِلْمِ، يَعْرِفُ عَنَّا كُلَّ شَيْءٍ. وَهُوَ إِلَهٌ كُلِّيُّ الْقُدْرَةِ، قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وَإِلَهٌ كُلِّيُّ الْقِدَاسَةِ. وَالْأَسْوَأُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ أَنَّهُ غَيْرُ قَابِلٍ لِلتَّغْيِيرِ. فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُصْبِحَ ضَعِيفًا، وَيَقْدِرَ قُدْرَتَهُ الْكَلِمَةَ. وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَشِيخَ، وَيَقْدِرَ مَعْرِفَتَهُ بِكُلِّ مَا فَعَلْتَهُ. فَهُوَ لَنْ يُصَابَ الْبَتَّةَ بِمَرَضِ الْأَلْزَهَائِمِ. وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُسَاوِمَ فِي بَرِّهِ أَوْ قِدَاسَتِهِ، لِأَنَّهُ ثَابِتٌ فِي قِدَاسَتِهِ، وَفِي قُدْرَتِهِ الْكَلِمَةَ، وَفِي عِلْمِهِ الْكَلِمَةَ. وَهَذِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا مُعْلَنَةٌ بِوَاسِطَةِ الطَّبِيعَةِ، وَنَحْنُ نَعْرِفُهَا بِالطَّبِيعَةِ. وَلِأَنَّ هَذَا مُرْعَبٌ جِدًّا، نَمِيلُ، كَمَخْلُوقَاتٍ سَاقِطَةٍ، إِلَى الرَّغْبَةِ الشَّدِيدَةِ فِي الْهُرُوبِ، مُنْذُ هَرَبَ آدَمُ وَحَوَاءٌ فِي الْحِجَّةِ، وَاخْتَبَأَ بَيْنَ الْأَشْجَارِ، لِأَنَّهُمَا كَانَا غُرَبَانَيْنِ، وَشَعَرَا بِالْحَجَلِ. فَأَكْبَرُ عَائِقٍ أَمَامَ فَهْمِنَا الْكَامِلِ لِلَّهِ هُوَ أَنَّنَا نَحْنُ أَيْضًا غُرَبَاءُ، وَنَحْنُ نَعْرِفُ ذَلِكَ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيَرِ، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقُدَيْسِ أَنْدَرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَيْسٍ لِكَلِمَةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلْإِصْلَاحِ (Reformation Bible College) وَهُوَ مُؤَلَّفُ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كَلْنَا لَاهُوتِيُون" و"أَدَهْسِنِي الْأَم".